African Journal of Advanced Studies in Humanities and Social Sciences (AJASHSS)
المجلة الإفريقية للدراسات المتقدمة في العلوم الإنسانية والاجتماعية
Online-ISSN: 2957-5907
Volume 3, Issue 1, January - March 2024, Page No: 282-301
Website: https://aaasjournals.com/index.php/ajashss/index
معامل التأثير العربي 2023: 1.25 SJIFactor 2023: 5.58 ISI 2022-2023: 0.510

رثاء الأقران في الشعر التشادي المعاصر: دراسة وصفية فنية (رثاء عباس محمد عبد الواحد أنموذجًا)

د. الحَبُّو تيجاني مصطفى[1*]، د. أمين علي دهب[2]
[1] عضو هيئة التدريس، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية اللغات والإعلام والفنون، جامعة الملك فيصل، بتشاد
[2] عضو هيئة التدريس، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية اللغات والإعلام والفنون، جامعة أنجمينا، بتشاد

Peer Lamentations in Contemporary Chadian Poetry: An Artistic Descriptive Study (The Lamentation of Abbas Muhammad Abd Al-Wahid as a Model)

Dr. Alhabo Tidjani Moustapha [1*], Dr. Amine Ali Dahab [2]
[1] Faculty member, Department of Arabic Language and Literature, College of Languages, Media and Arts, King Faisal University, Chad
[2] Faculty Member, Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Languages, Media and Arts, University of N'Djamena, Chad

[*]Corresponding author	alhabotijani@gmail.com	[*]المؤلف المراسل
تاريخ النشر: 2024-03-15 **تاريخ القبول:** 2024-02-27 **تاريخ الاستلام:** 2024-01-01

الملخص

يعرض هذا البحث دراسةً أدبيةً فنية في أساليب رثاء الشعراء التشاديين للشاعر عباس محمد عبد الواحد، رائد التيار المحافظ في الشعر التشادي، وتعرض الخصائص الفنية لتلك القصائد، وتُبرز مكانةَ الفقيد بين أقرانه. إذْ حَظِي عباس بعد وفاته بمَراثٍ لم يحْظَ بها أقرانه من محافظين وتجديدين؛ فقد كان قرينُه عيسى عبد الله رائدُ التيار التجديدي أكثر منه شهرة وإنتاجا، ولكنه لم يَنلْ ما نال عباس من رثاء أقرانه إيّاه بحرارة الوداع، وطِيْب الثناء.

وعلى ذلك أتت هذه الورقة لتدرس ما قيل في رثائه؛ للوقوف على ما فيها من فَنّيّات جمالية، مُسْتخدِمةً في عرضها منهجاً وصفياً تحليلياً يقوم على استقراء القصائد وبيان ما تضمنته من معان ودلالات، ثم تَتْبع ذلك دراسةٌ أدبيةٌ فنيةٌ، تبرز صُوَرَها الجمالية وأساليبَها في التعبير.

وغاية هذه الدراسة هي السعي لِتَحْفِيز الشعراء، في تَجْويد أشعارهم، وإبْراز جوانبها المشرقة، تَطلّعاً نحو الأفضل، كما تسلّط ضوءا على جوانب القصور، من باب النقد البَنّاء.

وخلُصت الدراسة بنتائج، منها: أن الشعراء التشاديين تفاعلوا مع حدث وفاة الشاعر عباس تفاعلا إيجابيا؛ فجادتْ قرائحهم بأشعار عبرت ـ بصدق ـ عما اختلج في ضمائرهم، وأن مكانة عباس في نفوس التشاديين عظيمة، وقد ظهر ذلك جليا رثائه.

ومما استُنتِج ـ أيضًا ـ أن الشاعر التشادي قدير على قرض الشعر حسب مقتضيات الموقف، وأن مرثيات الشعراء في عباس تمتاز بصدق العاطفة والوجدان، وفيها تعبير عن عمق الإخاء، والتأثر بِلَوْعَات الفراق.

الكلمات المفتاحية: رثاء، الأقران، الشعر التشادي، المعاصر، عباس عبد الواحد.

Abstract:
This gallery presents a literary and artistic study of the methods of Chadian poets eulogizing their counterpart, the pioneer of the conservative movement in Chad. The poet Abbas Muhammad Abdel Wahed presents the artistic and literary characteristics of these poems, explains their contents, and highlights the status of the deceased among his peers. After his death, Abbas received a lamentation that his conservative and modernist peers did not receive. His counterpart, the poet Issa Abdullah, the pioneer of the modernist movement, was more famous and productive than him. Many researches and various studies were conducted on his poetry, but what Abbas received from his peers' lamentations was the fervent farewell. And good praise, Jesus did not receive it.
Accordingly, this paper came to study what was said in his eulogy. To find out the aesthetic artistry in these elegies, it uses a descriptive and analytical approach in presenting it, based on extrapolating the poems and explaining the meanings and connotations they contain. This is then followed by a literary and artistic study, highlighting their aesthetic images and methods of expression.
The purpose of this study is to strive to motivate poets to improve their poetry and highlight their bright sides, looking for the best. It also highlights shortcomings for the sake of constructive criticism.
The study concluded with results, including: that Chadian poets reacted positively to the event of the death of poet Abbas; Their readers wrote poems that expressed - truthfully - what was on their consciences, and that Abbas's position in the hearts of Chadians was great.
It was also concluded that the Chadian poet is capable of writing poetry according to the requirements of the situation and that the poets' elegies in Abbas are distinguished by the sincerity of emotion and conscience, and they express the depth of brotherhood and the sensitivity to the pain of separation.

Keywords: Peer, Lamentations, Contemporary, Chadian Poetry, Abbas Abdul-Wahid.

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الحياة والموت، وحكم على الناس بالرحيل والفناء، بعد أن جعل بينهم الأُلْفَة والإخاء، وبعد؛

فقد بدأت دراسة الأدب العربي في تشاد مع نهاية القرن المنصرم، وكان مما ركزت عليه الدراسة أعمال الشاعر عباس محمد عبد الواحد، الذي يعد في نظر كثير من دارسي الأدب العربي في تشاد رائد التيار المحافظ في العصر الحديث، فأفردوا له مساحة واسعة من دراساتهم، وحظي شعره بدراسات مختلفة، بعضها أدبي - وهو الأكثر- وبعضها الآخر بلاغي، وما تزال الجهود مبذولة للوصول إلى المبتغى.

ترك رحيل عباس فراغا في الساحة الثقافية التشادية عموما وفي الساحة الشعرية خصوصا، وقد خَلَفه أجيال من الشعراء ذوي المواهب المتعددة، ولكن شهرته وموهبته - إذ كان شاعرا وفقيها فرضيا، وعالما فلكيا وداعية وسطيا - جعلت منه شاعرا متفردا رثاه أقرانه بحرارة الوداع، وطيب الثناء. حيث يقول في ذلك الشاعر عبد الواحد السني:

فرثاؤه فرض على زملائه لو أنه دون المقابل واقع

وربما كان هذا دافعا إلى رثائه من قبل أقرانه، ولقد حضر الباحث أمسية تأبين له في النادي الثقافي الشعبي بأنجمينا حضرها جمع غفير من الشعراء التشاديين، ألقى جلهم قصائد في رثائه، ومن هنا أتت الدوافع لدراسة هذا النتاج الشعري الذي يُدَوّن ضمن مراثي الأقران، للوقوف على قيمته الإنسانية والفنية.

مشكلة الدراسة

تعالج هذه الدراسة أساليب رثاء الشعراء للشعراء، وتعرض الخصائص الفنية والأدبية لتلك القصائد، وتبين مضامينها، وتبرز مكانة الفقيد بين أقرانه.

أهمية هذه الدراسة:
1 ـ تسجل الدراسة جزءا من العلاقات والروابط الإنسانية، التي شهدتها الساحة في القطر التشادي، ولا سيما علاقة الشعراء بعضهم ببعض.
2 ـ هذه الدراسة تخلد ذكرى شخصية علمية ثقافية تشادية، شاركت في مجريات الحياة بفاعلية، مع تأثير إيجابي على الإنسان التشادي، ومشاركة بنّاءة في إصلاح المجتمع، ولاسيما قضايا المرأة والشباب، والتعليم.
3 ـ تعد هذه الدراسة مرجعا في القصائد التي قيلت في رثاء الشاعر عباس، فهي تورد عناوين تلك القصائد ومطالعها، وبدلك تدْنيها من الباحثين.

أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى:
1 ـ المشاركة ضمن الجهود الساعية لحفظ التراث الأدبي العربي التشادي والتدوين له.

2 ـ السعي لتحفيز الشعراء، وتجويد المنتج الشعري، وإبراز جوانبه المشرقة، بغية التحفيز إلى ما هو أفضل، وتسليط الضوء على جوانب القصور من باب النقد البناء.

3 ـ الدعوة إلى الإخاء والتوادّ والعرفان بالفضل لأهله في حياتهم، ليكون دافعا حسنا، وخاصة بين الأقران التي ربما يدخلها التحاسد، ثم توضيح أن موقف اصحابي المراثي من زميلهم المتوفّى؛ مطلوب مثله بين الأحياء.

منهج الدراسة
قامت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي من حيث عرض الموضوع، ومعالجة جوانبه، وطريقة العمل فيه:

- دراسة القصائد دراسة وصفية عامة من حيث تكوينها والمناسبة الواردة فيها.
- عرض الموضوعات التي تناولتها القصائد وشكلت هيكلها.
- إجراء الدراسة الفنية بعرض الأبيات، وتعيين الشواهد للوقوف على الجوانب الفنية فيها مع الإشارة إلى الصور الجمالية والتعبير الرفيع.

هيكلة الدراسة
جاءت الدراسة في مقدمة وتمهيد، وعرض شمل سبعة قصائد لشعراء تشادين عاصروا الراحل. وتناول التمهيد تعريفا بالشاعر بذكر سيرته وبيان مكانته بين شعراء عصره.

العـــرض والـــتـحـــلـــيـل

التعريف بالشاعر
هو عباس محمد عبد الواحد، ولد بقرية الحقني جنوبي مدينة أبشة Abéchéعام 1944م، انتقل مع أسرته منذ نعومة أظفاره إلى مدينة بلتن Biltine، الواقعة شمال مدينة أبشة حوالي تسعين كيلوا مترا، تلقى تعليمه الأولي على يد والده ـ على عادة أبناء وداي ـ في خلوته المشهورة ببلتن، ثم التحق بالنظام التعليمي حينما شبّ، فدرس بالمدرسة المزدوجة العربية الفرنسية بأبشة إلى أن نال الشهادة الثانوية، ثم التحق بمعهد المعلمين للمدارس الابتدائية بأبشة، وبعد التخرج عمل مدرسا للغة العربية في المدارس الابتدائية.
أتيحت له الفرصة للدراسة في الخارج، فسافر إلى العراق حيث درس في جامعة المستنصرية وتخرج فيها عام 1983م.[1]

1- خصائص التراكيب البلاغية في شعر عباس محمد عبد الواحد (دراسة تطبيقية على مسائل علم المعاني) بشير أحمد سهل رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك فيصل بتشاد عام 2014م ص 1-2.

وفور عودته من رحلته العلمية زوال نشاط التدريس والتعليم في المدارس النظامية والحلقات، كما كان داعية، وعضوا باللجنة الإسلامية بجمهورية تشاد، وكانت له أنشطة في الإذاعة والتلفزيون الوطني في المجال ذاته.

جهوده العلمية

لعباس جهود علمية في مجالات شتى، فقد كان عالميا فقهيا وفلكيا ألف في فنون شتى. من كتبه:

- إزالة الغموض في تصحيح مسائل الفروض.
- صحيح المقال في معرفة ظل الزوال في علم الفلك.
- الميقات الدائم في علم الفلك.

بالإضافة إلى كتب أخرى مطبوعة، وأخرى لم تر النور.

إنتاجه الأدبي

يعد ديونه الموسوم بالملامح من أشهر إنتاجه في مجال الشعر، إذ حوى أغلب شعره، وله قصائد أخرى لم يشملها الديوان[2]، وهو أول ديوان شعر تشادي طُبع، وأجريت حوله دراسات عديدة، أشهرها دراسة الدكتور حسن محمود حسن، حيث شرحه وبوّب لقصائده.

وفي مرحلة الدراسات فوق الجامعية نال الديوان حظه من الدراسة، كما أجريت حوله دراسات في المرحلة الجامعية بمؤسسات التعليم العالي في تشاد، ولم يقتصر الجهد محليا، فقد وجدت دراسات حوله في جامعات خارجية في السودان وليبيا والكاميرون في مرحلة الماجستير والدكتوراه، وما تزال الجهود مستمرة حوله.

أما في مجال دراسة الصور الفنية والأسلوبية فالجهود قليلة شأنه شأن أغلب نتاج الشعراء في تشاد.

عباس عبد الواحد في مخيلة الشعراء

يقصد الباحث بالشعراء هنا الذين رثوه، وتأتي هذه الدراسة لتتناول الشق البلاغي للوقوف على جوانب مضيئة من الشعر الذي رُثي به عباس من قبل أقرانه، وهي تحاول تلمس الخطى في هذا المجال.

عباس الأخ الشاعر

هي السمة الأبرز ضمن ما ورد فيه من نعوت، وكونه شاعرا لاقى هوى في نفوس الشعراء، فرثوه بهذه المراثي، يقول فيه الشاعر الحبو:

أيا شاعر القطر المبجل عندنا عليك سلامٌ طيب متكامل

لبيدُ تشادٍ في المحافل كلها تفوهت بالشعر وإنك قائل

والشاعر حامد هارون[3] يرى أن الشعر بعده ذبل، وليس له من يعالجه، فهو المحكك له والمثقف عوده، وأن القوافي بعده في حيرة إلى من تؤول يحث يقول:

من للقريض إذا جاشت قرائح من للشعر جاء بوزن خاب وازيها؟

بعد الخليل حباه من فضائله بعد الخليل بناها فهو بانيها

2 - يُنظر مقدمة ديوان الملامح جمع وتحقيق وترتيب ودراسة الدكتور/ حسن محمود حسن محمد، دار طيبة للطباعة والنشر والتوزيع- أسيوط – مصر.

3- الشاعر الدكتور/ حامد هارون محمد، ولد حوالي 1960م بقرية حراز أم جرار إحدى ضواحي مدينة أبشة، تلقى تعليمه الأولي بها، ثم سافر إلى ليبيا، وهناك درس المرحلة الجامعية، وأكمل بقية تعليمه في جامعة الملك فيصل بتشاد، وهو عضو هيئة التدريس بها الآن، شاعر مقل، شعره جيد، وجله في المناسبات. – ينظر؛ موسوعة الأدب العربي التشادي للأستاذ الدكتور/ محمد النظيف يوسف ص248 الطبعة الأولى 2019م

ويسترسل في ذلك مدعيا أن بحور الخليل بأجمعها هي الأخرى افتقدت لمسته:

حتى القوافي دنت للسير مرتحـــلا من بعد قائدها من صار حاديها؟

ويرى الشاعر محمد عمر الفال[4] أنه يقوّم اعوجاج المرء بما له من هدي عظيم، وفكر مستنير، فهو هدى للوطن والمواطن، وكان تبوؤه هذه المكانة نتاج هذا التركيب:

وشعرك يا عباس يهدي إلى العلا فشادُ به تشدو وترضاه شاديا

فشعره يقوم على دعامتين قويتين هما معناه ومبناه، وما له من تأثير في نفوس سامعيه ومنشديه:

عروضك لم يعرض لها بعد عارض فقد بقيت نهجا ورمزا مباريا

وعلى هذا كثرت حوله الدراسات، بل هي السر في ذلك، فالتباري أو المباراة يقوم على توفر مقومات تغلب المنافس، وتدحض المناوئ.

وإذا انتقلنا إلى الشاعر حسب الله مهدي فضلة[5] فنجده يشير إلى ذلك الأمر، متحدثا على لسان نهر شاري، متخذا منه صنوا يبث إليه شكواه من خلال محاكاته إياه، مبينا مآثره:

وإن كسوت الربا نبتا فكم نسجت أشعارُه للورى روحا وريحانا

والشاعر عيسى عبد الله[6] يجد في فقده زوالا لنعم كثيرة، جلها لا يعوض، لارتباطها به، فمن علم بالفقه، إلى معرفة بعلم الفك، إلى قرض الشعر، إلى بقية العلوم، ويستنطق الشعر جاعلا منه كائنا حيا مخاطبا كما فعل حسب الله:

يقول عيسى:

عباس من تركت للمغازي والنحو والحديث والقريض؟

والشعــر طائـر بلا حراكٍ باك على جناحـــه المهيض

مات الذي حباه لحـن وارا وارى الترابُ مَعْلَمَ النهوض

الناشــد الرّقِــي غيــر وانٍ الفارض المفسر العروضي

هذه الأبيات ـ بالإضافة إلى ما فيها من نعوت ـ فيها صور جمالية.

ونعرض مثلا من خارج محيطه القومي للوقوف على تجاوب الشعراء مع فقده، فقد رثاه الشاعر النيجري دغويني[7] ما يفيد تأثيره على أفراد الأمة الإسلامية:

ماذا تقول قصائـد الشعر التي صارت بـــلا ثغـر ولا أوزان؟

4- الشاعر الدكتور/ محمد عمر الفال، ولد عام 1968م بقرية الدقلى بمقاطعة أم ساق، التابعة لمحافظة البطحاء الشرقية، تجول كثيرا في الدول العربية أثناء دراسته، فهو شاعر نشط، وأكاديمي بارز، له إسهامات في الأدب، ومن رموز التيار المحافظ في تشاد في العصر المعاصر.

5- الشاعر الدكتور/ حسب الله مهدي فضله، شاعر مفوه، ذو اتجاه محافظ، أكاديمي، وناشط مثقف، أوتي نظم الشعر في صباه ولد عام 1974م بمدينة أبشة، تقلد الكثير من المناصب في القطاعات الشبابية والأكاديمية، منها رئاسة الاتحاد العام مؤسسات دعم اللغة العربية، ورئاسة المجلس الأعلى للغة العربية في أفريقيا.

6- الشاعر القدير والسياسي المناضل عيسى عبد الله محمد فضل، من أشهر شعراء المعاصرة في تشاد وألمعهم، وأغرزهم نتاجا، رائد الاتجاه التجديدي، ولد عام 1948م بأم روابة بولاية شمال كردفان بالسودان، وتوفي بها عام 2014م.

7- الشاعر/ محمد آدم الدعويني، شاعر نيجري مجيد، ولد عام 1974م بمدينة آيرو بالنيجر، درس المرحلة الجامعية بكلية الدراسات العربية والإسلامية بليبيا فرع تشاد، وتخرج فيها، وبعد عودته إلى وطنه اشتغل بالتدريس، وتوفي يوم 29يناير 2020م. www.afkaar.online

عباس مات وللقصائد أن تـــرى حزن القلوب وأدمع الجفنان

هو حلقة الشعر التي بنيت على ثقــةٍ مـــن الإبداع والتبيــان

وأمامَها هُزِمت دعـــاوى نـاقــد وارتـــــد مـوج النقد والنكـران

وتناثرت شُبـه العـــــروض لأنـهـا وجـــدت بناء ثابت الأركــان

إلى غير ذلك من أبيات تدل على تأثر الشعراء بفقدهم شاعرا له مكانته بين سلّم الشعراء التشاديين في العصر الحديث.

عباس الفقيه الفرضي

يعد الراحل من العلماء التشاديين الذين تبحروا في علوم الفرائض، واعتنوا به عناية فائقة، وحلقته في دروس علم المواريث يشار إليها في هذا الفن، وكتابه في علم الفرائض (إزالة الغموض في تصحيح مسائل الفروض) كتاب عميق في بابه، وكان هذا دافعا لرفع الصوت بالرثاء عاليا من قبل أقرانه.

يقول في هذا محمد آدم دغويني:

صان الإله به فرائـض أمـة في عصرنا المتذبذب الحيراني

وكان لجلوسه الطويل في شرح المواريث وتفصيلها للناس أثر طيب في تلاميذه، فهي من العلوم التي قلت في عصرنا، والله هيأ له هذا الأمر فعمل فيه طول حياته مؤلفا ومبينا للناس ما يلاقونه فيه.

يقول عنه محمد عمر الفال:

رحلت ولم ترحل جهودك يا فتى فعلمـك بين الناس ما زال باقيا

فرائض إرث للورى كنت شارحا فبينت مجهـولا ووضحت خافيا

في أسلوب تقريري يعرض الشاعر ما قام به من جهد في هذا المجال، فَطريقُه الشعر، وتالِدُه المواريث، وبينهما علمُ الفلك، هكذا ظل يؤدي دوره في المجتمع التشادي حتى أتاه اليقين، بعد رحلة حياة حافلة بالعلم والعطاء.

ونرى الشاعر حامد هارون يرثيه بقصيدة، يتساءل فيها عمن يخلفه في هذا العلوم؟ بل ينفي ذلك ـ مبالغة ـ حين يقول:

مَن للمواريث بعد البحر مِن عَلَمٍ يُفتي ويفصل قولا في مراميها؟

وليس عنه الشاعر الحبو تجاني[8] ببعيد، حيث يصف جهده في هذا المجال:

لبيـبٌ بتـوريـث الجميع بحنكـة إذا مـــا بدا ردٌّ وعالت مسائل

فـــورثت أيتـامــا وطورا أرامــلاً بحسن أداء لست فيه تعاظل

عباس العالم الفلكي

حبا الله تشاد بعالم فلكي قدير، هو هذا الشاعر، إذ درس هذا الفن على يد والده، ثم أكمله في العراق في ثمانينيات القرن الماضي، فبرع فيه، وكان تقويمه السنوي هو تقويم تشاد المعتمد في رمضان منذ أن جدوله إلى يومنا هذا رغم وجود غيره.

يقول عنه الحبو تجاني:

وقوّمت شهرا للصيام مجدولا وهل لك من بين البرية فاعـل؟

8- الشاعر الدكتور/ الحبّو تيجاني مصطفى من شعراء المعاصرة، ذو اتجاه تقليدي(محافظ)، ولد بقرية أم زيد إحدى ضواحي مدينة أبشة عام 1978م، أكاديمي، ذو مشاركة في الشعر.

لم يكن للمجتمع التشادي- قبل إخراج عباس تقويمه - عناية بهذا الفن، فالناس يصومون في الغالب على المراصد الأجنبية، والإذاعات الخارجية، اقتداء بالسعودية ومصر والمغرب، وأهل القرى والريف يصومون على الرؤية، ولكن منذ دخول تقويمه حيز العمل أخذ الناس به، والتزموه في مواقيتهم صياما وصلاة.

وإن المواقيت التي وقتها هي مواقيت الناس في مساجدهم، ولهذا وجِد عليه الشعراء كثيرا، وأن ما أقلقهم في موته رصيده في علم الفلك، فبذهابه فقدت تشاد عالما فلكيا قديرا، فنجدهم يرثونه متحسرين على علمه ومنه علم الفلك:

يقول عن ذلك حامد هارون:

من للمواقيت فــردٌ في ملامحه يجلو غياهبها يُدني قواصيها؟

وها هي الآن تلفظ أنفاسها إذ أصابها العطب بذهاب مهندسها؛ يقول عنها محمد دعويني:

إن الجــداول والحســاب رأيتــها تبكي مع الأشعار بالأحزان

أصابت الفاجعة المواقيت التي كان يعدها لفقدها إياه، وسماها جداول لكونها تحوي جداول بيانية، فالفقد جلل، والعزاء قاسم مشترك بين الجميع كما يقول الفال:

مصابك يا عباس قد زلزل القِوى وحرك أركان البلاد حواليا

ثم واصل دغويني في رثائه:

مات المقوم للشهور على صـدى رغباتنا في سائر الأكوان

في البيت إشارة إلى شهرة هذا الفقيد، فقد عرفته مصر والسودان وليبيا ودول الخليج كالسعودية والإمارات وقطر عن طريق الوفود والزيارات، وعضويته في رابطة العالم الإسلامي، بالإضافة إلى دول المغرب العربي.

وعبر عنه الشاعر الفال بعلم النجوم حين قال:

وعلم نجوم لا يـزال يرومـــه أخ لك في الإسلام لم يكُ لاهيا

فيه إشارة إلى أن من تولى هذا الأمر بعده في ساحتنا لم يرق إلى مستوى عمل عباس.

وذكره للنجوم لا يدل على الجانب المذموم من علم الفلك، إنما جاءت من باب النظم، وانظر في هذا الشاعر عيسى عبد الله حيث قال:

لم تُعيه النجوم عند رصدبل أعجز النـوم في الوميض

قد وقّت الصلاة فاستبانت والصـــوم لم يــدعه للغموض

بعــض العلوم بعده بئـــار آلـــت بموتــه إلى مغيـــض

يرى الشاعر أن مرثيه متبحر في هذا الفن، فلم تغب عليه فيه مسألة، بل ادعى أنه أعجز النجوم، لمعرفته بخفايا هذا الفن والخلاص إلى دقائقه، وبعد موته آلت بعض العلوم إلى زوال، وتلك إشارة إلى الأثر القائل: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء... »[9] ومنها هذا الفن.

9- سنن ابن ماجه، باب اجتناب الرأي والقياس، الحديث رقم 52.

عباس العالم الرباني

لا يختلف اثنان من أهل تشاد أن عباس كان عالما ربانيا تولى هذه المهمة الشريفة طول حياته، وأعطاها وقته، فقد كان بجانب ذلك مفسرا لكاب الله، وتولى تفسير القرآن الكريم في مدينة بلتن لعدة سنوات كما كان أبوه من قبل.

يقول فيه حامد هارون:

فقه الإمام وتفسير الجلال بدا في بل طين قراها بل ضواحيها

هو المعين فـــلا دلـو يكـدره بحر يـــؤم نـداه الخلـق ساقيها

ويقول دغويني في عزاء أهل بلتن ذاكرا حالهم:

في عين بلتنَ أدمع فياضــة تلقى دموع انجامنا الولهان

عباس لا بل قلعة العلم التي مُلئت بـــرأي صائب وبيـــان

ويقول فيه الشاعر الحبو:

تزينت بالعلم افتخارا ورفعة إذا السيف زان الغمدَ منه الحمائل

فبينت معنى للكتاب مفســرا بتدبيـــــر آيـات غدا يتناقـــــل

إن ما قيل في شأن عباس في جانب العلم والمعرفة كثير، وثناء العلماء عليه في يوم تأبينه خير شاهد، فمساجد أنجمينا وأبشة وبلتن وحلقاتها كفيلة بالإجابة عن جلوسه في منابرها وتعليم الناس وتوجيههم.

ويقول عنه الشاعر عبد الواحد السني[10]:

حـــل البلاء بساحة الأدباء إذ مات الإمام الفاضل المتواضع

ذاك السراج إذا أصبت ضياءه بـــان الطريـق وليس فيه منازع

قصر الشاعر مصاب الناس بموت عباس على الأدب، وذلك أن كل إناء بما فيه ينضح، فالسني شاعر، فعبر على لسان الشعر والشعراء، وإنما فقده مصيبة على الأمة التشادية جمعاء، وخير من مثّل ذلك الشاعر الفال حيث قال:

مصابك يا عباس قد زلزل القـوى وحـــــرك أركان البلاد حواليا

والشاعر عيسى عبد الله يبين مدى الفقد على الوطن والمواطن برحيل العلم والعلماء:

عباس من تركت للمغـازي والنحو والحديث والقريض؟

هل قلت للجهالة اطمئني؟ فالجـو قد خلا لكي تبيضي

كثيرا ما يتساءل الشعراء عند فقد العلماء إلى من يؤول تراثهم؟ فالجهل فشا رغم تطور وسائل التعليم، ولم يكن اهتمام الناس مثل أسلافهم، إذ شغلتهم شواغل الحياة، وهو ما يُبكي الشاعر الغيور على تراثه ومبادئه، فرحيل الرموز التي تمثل هذا التراث دليل على عظم الأمر.

ويتساءل الفال عن خلافة هذا العالم الرباني:

أعباس من خلفت في القوم بعدما رحلت كريما ماجدا متساميا؟

10- الشاعر الأستاذ/ عبد الواحد علي عبد الرحمن السني، ولد عام 1975م، بقرية الدوارة بحجر لميس، اشتغل بالتدريس بعد تخرجه، وأشعار جيدة في موضوعات متفرقة، له ثلاث دواوين شعر متوسطة لم تطبع، توفي عام 2018م بأنجمينا.

ثم عاد فاسترجع حين علم أنه رحل بجسده، وخلف آثارا هي السلوان عن فقده، فقال:

رحلت ولم ترحل جهـــودك يا فتى فعلمك بين الناس ما زال باقيا

فالشاعر الفطن تستدرجه العواطف أحيانا، فإذا دنا من المزالق حلق بفكره عاليا، وقد فعل شاعرنا حين عز عليه تحمّل فقد فقيد الشعر والعلم، ولمّا تذكّر رحمة الله عليه عاد عليه الأمل، فقال؛ رحلت ولم ترحل جهودك...إلخ.

أما الشاعر حسب الله مهدي فله رأي مختلف في هذا، إذ يرى أن ما خلفه الراحل صورة عنه، فهو كالحي بيننا، وما علينا إلا اتباع منهجه للوصول إلى المبتغى:

ولنسمُ نحو العلا دوما فقد كشفت أنواره الدرب تقويما وأوزانا

عباس الزاهد المفضال

إن تعدد خصال المرء الشريفة على ألسنة الآخرين دلالة على صفاء سريرته وتقبلها لدى الناس، وحين ننظر في المراثي في عباس نجد أن ذكر الخصال المحمودة والثناء عليه أغلب هذه القصائد، فكل قصيدة تفتتح بذكرها وتتختم، مما يدل على أن الفقيد له مكانة رفيعة في وجدان المجتمع التشادي عموما، ومجتمع الشعراء خصوصا، فما من بيت فيها إلا والذي قبله أو الذي يليه يحمل شيئا منها.

يقول عنه حامد هارون:

عباس رمز التقى رمز التواضع في أسمى المراتب في أبهى معانيها

الصـــفح شيمتـــه والـزهـــــد زينتـــهوالعـفـــو خصلـته والحلم تاليهـا

وعلى منواله نسج الشاعر دغويني مبينا بعضا من تلك الخصائل التي امتاز بها، وكانت ديدنه في حياته:

ماذا تقـول عن التواضــع شـامخا وعن الشموخ تحاط بالأشجان

ماذا تقول عـن السماحــة والنّـهى عن شعر هذا العالـــم الرباني

ويقول عنه الشاعر محمد عمر الفال أبيات حاوية للمحامد والخصال:

فتى لـم يُعبه الناس إلا بـمِدحـةٍ وإلا بقـول كـان حبك نـــاميـا

رحلت عظيم القدر والقدر هكـذا يصيد خيار القوم واحد ثانيا

فقوله؛ لم يعبه الناس أسلوب بلاغي رفيع، فإن كان الأمر كذلك فما قيل فيه أو يقال يزيده مكانة، ويرفع من شأنه.

ويقول عنه الشاعر الحبو:

متى تأته تلقاء وضاء ضاحكـا وطلق المحيّا للصـنائع بـاذل

إذا رمته يومـا وجـــدت عجائبا فللبذل معروف وللجود ساحل

وجدير بالرجل الكريم أن يكون على قدر ظن الناس بهن وما ذاك بعزيز على من طلبه، فكسب ثقة الناس واحترامهم يُكتسب ولا يوهب.

ويقول عنه عيسى عبد الله:

ما جاء عنـك قـط غـير بـرٍ يـــزهـو بـــه الـرواة مستفيـض

لم تؤذ عامـدا وكيـف تـؤذي حامي ذوي الجروح والرضوض

ما قصرت يداك عـن عطـاء بالقض قــد وصلـت والقضيض

تحاشى الشاعر ذكر الخصال العامة التي يمكن أن يتصف بها عامة القوم، أما هذه فهي لأهل الفضل، فالترفع عن الرذائل شيمة، والدعوة إليها أدب، والعفو عند الحلم مكرمة، وعند الغضب حكمة، ووصل الضعيف إنسانية وبناؤه سجية، وعلى ذلك جرت حياته، وسعدت بها نفسه حتى انتقل راضيا مرضيا.

ونختم هذا الجانب بقول الشاعر عبد الواحد السني:

لين الجوانب دأبه ومقامه فوق الكواكب والثواقب ساطع

قرن الشاعر بين لين الجوانب والكرم، فكل كريم لين بشوش، ومن جمع بينهما حمله الناس على المقل، وتغنوا بفضله.

يكثر الناس على أبواب الفضلاء ابتغاء نوالهم، ويطلبونهم حلا وترحالا، وهو ما يريده الشاعر بقوله (متلاحق) ولا أراها سليمة، ويقصد أنه يلاحقه طالبوا نواله، فأتى بهذه المفردة على هذه الصيغة.

عباس المودَّع

ختمت القصائد بالترحم عليه والدعاء له، وذلك دأب المسلمين في التعامل مع موتاهم.

يقول حامد هارون في ذلك:

عـزوا الفقيـد فلا خـلّ يماثـلـه أو يستعيد بناءً فهو بانيها

عزاؤنا اليوم صبرُ غير مجزعة والله يغفر للحُضّار ماضيها

يُبَيّن أن فقيده يعز وجود آخرٍ مثله، مبالغة منه على عادة الشعراء، وأن عزاءهم هو ومن معه في هذا المضمار على فقده صبر، وهو محمود، دون الخوف الذي عبر عنه بالمجزعة وهي مذمومة، فأهل البصيرة إذا انتابهم ما يهولهم استرجعوا لله.

ويقول عنه الفال:

أعباس إن الموت حق على الورى فرحماك في الدنيا ورحماك فانيا

يبرر بكاء الأحبة على فقيدهم بأنهم لا يبكون فيه نفسه البشرية، فهو كائن حي وتلحقه المنية، إنما يبكون العلم والشعر اللذين يزولان بموته، وما عليهم إلا الصبر والتّصبّر، والدعاء له بالمغفرة والرحمة.

وقال الشاعر دغويني

عباس مات عليه أندى رحمةٍ وأجل مغفرة من الرضـوان

ولنعم الدعاء بظهر الغيب، فلسان الشعراء ما فتئ يلهج بالدعاء والترحم عليه في مواطن كثيرة، وتبقى هذه الدعوات ببقاء القصائد، فما أنشدت إلا زادته مغفرة ورحمة.

ويقول الحبو في الشأن ذاته:

تواريت فـي جنـــب الإله رضى بـه فحسبك جنب الله والضيف نازل

وجوزيت بالإحسان عن أمة الهدى فذنبـك مغفـــــور وأجــرك ماثل

فدعـواتنـــا تتــرا إليـك مساقـــــــةلــروحـك مادامت وجسمك راحل

ونختم هذا الجانب بقول عيسى عبد الله:

يــا رب فاغمـــــرنّه بفـــيضٍ يغنيه يوم عــزة القـــروض

واغفر له الذنوب، فيــه شفِّـع خير الورى بجاهه العريض

ويوم عزة القروض، هو يوم القيامة حين لا يغني أحد عن أحد شيئا. وفي هذا تعبير رفيع بالكناية يشير إلى طلب الرحمة من الله له وهي ممكنة قبل أن تعزّ، ثم ختم البيت متشفعا بالشفاعة النبوية التي يؤمّلها المؤمنون جميعا، جعلنا الله جميعا في كنف شفاعته يوم القيامة آمين.

هكذا يسترسل الشعراء في الدعاء لعباس مسترشدين بالآيات والأحاديث، يتقدمهم الأسى على فقده، ويسوقهم الصبر، فبين ذا وذاك جاءت هذه القصائد مختومة بالدعاء له، ومشتملة على الصلوات على النبي محمد صلى الله عليه وسم، مما يؤكد وضوح الاتجاه الديني عند شعراء العربية في تشاد.

هذه القصائد مدارها حول شخصية عباس وما كان يقوم به في حياته، وما تخلل ذلك من شيم وعطاء.

عباس واتصاله بوارا

وارا مدينة أثرية تقع شمال مدينة أبشة على بعد (50) كلم تقريبا، وعلى بعد (200) كلم عن الحدود التشادية السودانية، كانت عاصمة سلطنة دار وداي حينما أنشئت عام 1611م[11] إلى عام 1850م حين نقلت إلى مدينة أبشة.

ترجع شهرة عباس الشعرية إلى قصيدته المشهورة (وقفة في وارا) التي مطلعها:

وارا وقفت على ربوعك ساعـة فاكتظ قلبي هيبة وجـلالا[12]

حيث تجاوب معها التشاديون بصورة تفوق الخيال، إذ كانت هذه المدينة تمثل إرثهم التاريخي المفقود، فلما نظم الموضوع على شكل قصيدة يسهل التعاطي معها وافق هواهم، وعلى هذا الأساس لم يغب عن بال الشعراء صنيعه بوارا فنعتوه بعد رحيله بأنه قَرَن الشعر بوارا.

يقول عيسى عبد الله في ذلك:

مـات الذي حباه لحن وارا وارى الترابُ معلمَ النهوض

لم يطرق هذا الغرض قبله في الشعر العربي التشادي فصار لا يُذكر عباس إلا ويتذكر الناس معه وارا.

يقول عنه الفال:

وإن ذرفـــت عينـــاك يـــــومـا بوارةٍ فها هي وارا اليوم تزجي التعازيا

وإن وقفـــت لاماجي[13] تنـدب ساعة فقــد وقفـــــت وارا تنــوح الليـالـيا

ويسترسل في ذكر مآثره، وما خلّفه من أثر بعد رحيله حتى أن البقاع لتذرف عليه الدمع مودعة على مضض، غير أنها ليس لها إلا ذاك، ولو أمكنها فعل غير ذلك لحاولت، ولكن هيهات، فتلك أقدار الله في خلقه تجري وفق مراده، فقال:

ولو كان نقل الجسم في الدين شرعة لوارتك وارا حيث كنت منـاديا

في دائرة القصائد

القصيدة الأولى للشاعر عيسى عبد الله محمد بعنوان؛ (الضاد تندبه) في حدود خمسة وثلاثين بيتا من بحر الرجز، قافيتها ضادية، مطلعها:

فرض عليك أوجب الفروض يا أعين الرجال أن تفيضي[14]

11- مختصر تاريخ سلطنة دار وداي الإسلامية العباسية من عام 1611- 2005م أ. عز الدين مكي إسحاق، الطبعة الأولى، طبعة عام 2016م دار الفضيلة؛ القاهرة – مصر. ص107.

12- الملامح؛ ديوان شعر؛ عباس محمد عبد الواحد ط1983م مطبعة أسعد، بغداد – العراق. ص10.

13- لا ماجي، حي بأطراف العاصمة أنجمينا من الجهة الشمالية، به مقبرة كبيرة لأموات المسلمين. أصلها (لا، ما أجيء) أي لا أعود إليها مرة ثانية، فحرفت مثلما حرفت أسماء كثيرة لبلدات وقرى في تشاد، يقال عن القصة؛ سابقا كان الحي غير مأمون لبعده عن العاصمة، كما أن فيه الوحل الشديد في موسم الأمطار، فكان الرجل إذا جاء إليهم زائرا يعاني الأمرّين، فإذا طُلب منه الزيارة مرة أخرى قال ذلك، فصار اسما على القرية.

14- باقة من لباقة؛ ديوان شعر – للشاعر/ عيسى عبد الله محمد، مطبوع على الآلة.

افتتحها الشاعر بمخاطبة الأعين طالبا منها بكاء الفقيد وهو يريد بها أهلها داعيا إياهم إلى بكاء الراحل بما يناسب قدره. وخص الرجال لأن أعين النساء بطبعها تسيل بسهولة.

القصيدة الثانية للشاعر محمد عمر الفال عيسى بعنوان: (سلام على الدنيا) وهي أيضا مكونة من خمسة وثلاثين بيتا من بحر الطويل، قافيتها الياء، ومطلعها:

مصابك يا عباس قد زلزل القِـوى وحـــرك أركان البـــلاد حواليـــا[15]

مناسبتها ظاهرة، حيث خيم الحزن على مخيلة الشعراء، وما كان منه إلا أن استسلم للأقدار وودع الدنيا لاصطيادها الأكابر من بني جنسه.

واسترسل في ذكر نعوت الفقيد واصفا إياه بالأخ في أبيات عديدة، والجدير بالذكر أن الشاعر الفال صنو عباس في مدرسته، ومعدود من رموز التيار المحافظ على غراره.

القصيدة الثالثة للشاعر حسب الله مهدي فضله بعنوان: (شاري الحزين) وتتكون من اثنين وثلاثين بيتا، فهي من بحر البسيط، وقافيتها نونية، ومطلعها:

أراك تمرح في مجراك جذلانا ألم تفارق أحباء وخلانا[16]**؟**

بناها الشاعر على شكل حوار بينه وبين نهر شاري متخذا منه مخاطَبا مستفهما عن حاله حين لم يجزع على فراق عباس.

القصيدة الرابعة للشاعر الحبّو تيجاني مصطفى بعنوان: (الرثاء المر) تتكون من خمسة وعشرين بيتا، قافيتها رائية، ومطلعها:

أيا شاعر القطـر المبجّل عندنا عليك ســـــــلام طيب متكامل[17]

استهل الشاعر قصيدته بنداء الفقيد علّه يجيب، متخذا من أداة النداء وسيلة للوصول إلى روح الفقيد، فهو حاضر معه بعلمه وفضله وإن بعُد عنه حسا. ووصفه بشاعر القطر لما كان يحظى به من تقدير لدى دارسي الأدب في تشاد، بل يعده كثيرون منهم رائد التيار المحافظ في العصر الحديث.

القصيدة الخامسة للشاعر محمد آدم دغويني بعنوان (في رثاء العلامة) من بحر البسيط وهي نونية القافية، تبلغ ستة وأربعين بيتا، مطلعها:

خفقان قلب النحو أم خفقان أم أنه شلل على الأوزان؟[18]

تتشابه في بنائها مع قصيدة الشاعر السعودي عبد الرحمن العشماوي في رثاء فقيد الأمة ابن باز، وفيها أبيات عن عباس حيث الحديث عن تشاد في موضوعات كثيرة، وتتخللها أبيات للشاعر عبد الرحمن العشماوي. ولم يتمكن الباحث من التأكد منها كون قائلها فارق الحياة منذ عام 2022م.

القصيدة السادسة للشاعر حامد هارون محمد، ليس لها عنوان ولكنها في رثاء عباس حيث ورد في أولها (قصيدة في رثاء الشيخ الشاعر عباس محمد عبد الواحد) تتكون من ثمانية عشر بيتا، هائية القافية، مطلها:

دار الحبيب تجلت خلو بانيها واستبدل الحزن أنسا كان ماليها[19]

15- قصيدة بعنوان: (سلام على الدنيا) للشاعر/ محمد عمر الفال مكتوبة بخط يده.
16- نبضات أمتي؛ ديوان شعر، حسب الله مهدي فضلة، ط 1 طبعة 2006م أنجمينا - تشاد. ص112
17- صدى؛ ديوان شعر؛ الحبّو تيجاني مصطفى؛ الطبعة الأولى- ط2016م دار الفضيلة للنشر -القاهرة ص137.
18- فن الرثاء بين شعراء تشاد المحافظين والمجددين، صفية موسى عزو- دبلوم الدراسات المعمقة غير منشور – جامعة الملك فيصل بتشاد عام 2004م ص 162م

جاءت القصيدة على هذه القافية ذات النفس الطويل لتأكيد حرارة الفقد، وإظهار الحزن.

القصيدة السابعة للشاعر عبد الواحد السني.
تقع القصيدة في ثمانية أبيات من بحر الكامل، بنيت على قافية العين، وهي أقصر القصائد في هذا الباب، وربما كانت لها أبيات أخرى، ولم يحصل عليها الباحث، فهي على حسب البحث الذي أوردها من ديوان للشاعر يسمى (برهان الاقتدار على نظم الأشعار)[20] إذ فقد الديوان بموت صاحبه، ولم يهتد الباحث إلى اسم لها لعدم ذكره من قِبَل من أوردها، فالبحث الذي وردت فيه غير منشور، وصاحبه هو الآخر توفي.

لم تُبنَ على شاكلة مثيلاتها من حيث الموضوع، بل جاءت سردا عاما لأحوال الفقيد. وعليه يدور البحث حول هذه القصائد على اختلاف حجمها وموضوعاتها.

الدراسة الفنية
حوت هذه القصائد على اختلاف مجراها وأبحرها بعضا من صور البلاغة والأسلوب، فالناظر إليها يجد أن الشعراء تفننوا في جلب البيان والبديع لرسم ملامح الصورة عن حياة المرثي وجهوده، وما أحسّوه من ألم برحيله عبروا عنه بشعر ترجمته ألسنتهم، وهو يفيض أسى وحسرة على هذا الفقد الجلل.

تتباين الصور من شاعر لآخر حسب مقدرة كلٍ في رسم ملامح الصورة، وعليه تأتي الدراسة مشتملة على هذه الصور، ويسعى الباحث للوقوف على أهمها من حيث الوصف والتأثير.

صور البيان

يقول الشاعر عيسى عبد الله:

والشعر طائــر بلا حراكٍ باك علــى جناحـــــــه المهيــض

مــات الذي حبـــــاه لحن وارا وارى التراب معلم النهوض

هل قلت للجهالة اطمـــئني؟ فالجو قـد خلا لكي تبيضي

حوت هذه الأبيات صورا من البيان، فالبيت الأول فيه تشبيه، حيث شبه الشعر بالطائر الذي ينتقل من مكان لآخر فيرفرف بجناحيه ليلفت انتباه الناظر إليه، كما أنه بلحنه الشجي يطرب آذان السامعين، فإذا فقد وظيفته لم يكن لوجوده معنى، فالمشبه الشعر، والمشبه به الطائر، ووجه الشبه النغم الشجي الممتع، فكلاهما يُطرب منه، ونوع التشبيه مفرد بمقيد، حيث قرن المشبه بما يلازمه وهو عدم الحراك.

والاستعارة المكنية في قوله؛ جناحه المهيض، فالجناح من خصائص الطائر، وهنا يريد به عباس، إذ جعله جناح الطائر الثاني ليتحرك به، فلما افتقده عجز عن الطيران. والمجاز في قوله حباه، فالشعر لا يحبى، فتلك من خصائص الكائن الحي، إنما حل اللحن فيه فكأنه حباه إياه.

الكناية في قوله؛ معلم النهوض، فهي كناية عن موصوف لم يذكر باسمه، وإنما ذكره بصفة من صفاته تقوم مقام اسمه، فهو كذلك بما حوى من معارف جمة.

والاستعارة التمثيلية في البيت الأخير، حيث استعار المثل المشهور (خلا لك الجو فبيضي واصفري)[21] فكأن رحيل عباس قال للجهالة الآن خلا لك الجو.

يقول حسب الله مهدي على لسان نهر شاري:

19- قصيدة بعنوان (في رثاء الشيخ الشاعر عباس محمد عبد الواحد) للشاعر حامد هرون محمد، مكتوبة بخط يد كاتبها
20- يُنظر البناء الفني في شعر عبد الواحد علي عبد الرحمن السني، هاشم محمد يوسف، دبلوم الدراسات المعمقة- جامعة الملك فيصل بتشاد 2008م رسالة غير منشورة، ص48.
21- الحيوان؛ عمرو بن بحر الجاحظ، الطبعة الثانية، 1424هـ، دار الكتب العلمية – بيروت، ج5ص125.

قد غاض مائِيَ حزنا واستعضت به دمعا فليس بماء كل ما لانا

يتحدث الشاعر على لسان النهر واصفا حاله حين استدرجه للوقوف على حجم الأسى الذي حل بالناس، فأخبره بأن ماءه غاض حزنا على فراق عباس، واستعاض بذلك دمعا ليدل على ما يدعيه، ولدفع الشَّبه بين الماء والدمع بيّن أن ما بلّ حافتيه ليس ماء، بل دمع على رحيل صنوه، وجاء بالاستعارة التمثيلية المتمثلة في نهاية البيت من باب التعليل، ودفع التوهم.

يقول الشاعر الحبو:

لبيد تشاد في المحافل كلــها تفوهت بالشعر وإنك قائل

شبه الشاعر ممدوحه بلبيد في نظم الشعر وإجادته، ثم أضافه إلى تشاد تمييزا له عن سائر الشعراء، وبيّن أن المكانة ليست مقتصرة على اتجاه معين، بل هو نجم بلاده في المحافل فحيث اقتضت الحاجة كان هو من يمثلها. وأضاف له وصفي الشعر من حيث القول والرواية، فهو منشده حين يطيب الإنشاد، ويقوله حين يستدعي الأمر.

ويقول حسب الله مهدي:

حتى رمتهم يد الأيام في عجل فأججوا في الحشا بالحزن نيرانا

يتحدث الشاعر عن الحالة على لسان الشاعر مخاطبا إياه على عدم تجاوبه مع الحدث الجلل وكأنه لم يحس بما أحس به الشاعر، فاستفهم عن حاله قائلا: ألم تفارق أحباء وخلانا؟ مقدما الأداة التي تفيد الإنكار على حالة المخاطب الذي لم يتأثر.

ثم عرج على وصف حال الأحبة حين فرقت بينهم الأقدار، إذ أصابت سهام الموت عباس، فانفرط عقد الجمع فصاروا بلا رابط.

وقوله؛ رمتهم يد الأيام مجاز، فالأيام ليست لها أيادي حتى ترمي، إنما الرمي من خصائص الكائن الحي، ولكن لإيصال الرسالة جعل الأيام كائنا يرمي، فأصاب برميته هؤلاء القوم فتفرقوا، وكأن ذلك في عاجل حتى لا يتمكنوا من اتقاء الرمية.

وهنالك الاستعارة في قوله؛ نيران، فالحزن لأجل الفقد كان قويا وصادما، وكأن حرارته نار تتقد في الحشا، إذ شبه الألم البالغ بالنار بجامع الإحراق في كل، فالنار تحرق البدن والحزن يحرق الحشا، وشبه الأثر الناتج عن هذا الألم بتأجيج النار، حيث يظل الواحد يتأثر بتذكر ممدوحه، فيزداد جوى على جوى كالنار يزداد لهيبها بالتأجيج.

ثم قال:

فاستعبر النهر وانسابت مدامعه حَــرّى وأطلق زفـــــرات وغليــانا

وابتل شاطئه بالـدمع فــارتجفت أوصاله وارتمى في الرمل حيرانا

استرسل الشاعر في وصف أحوال النهر بعد سماع نبأ وفاة عباس، فانقلبت حاله من فرح إلى حزن، حيث أرسل العبرات تباعا، وسالت دمعته على فراق حبيبه، مطلقا زفرات وآهات تعبر عن حاله، كما أن أوصاله ارتجفت لهول الخبر، فارتمى في الرمل حزنا.

البيتان فيهما صور جمة من صور البيان، حيث المجار والاستعارة يتناوبان في أداء المعنى، فالعبرات، وانسياب الدمع، وارتجاف الأوصال، والحيرة من خصائص الكائن الحي التي يتأثر بما يناله من فرح أو حزن، وليس من خصائص النهر، وإنما أجربت عليه من باب استعمال المجاز في تصوير المعاني وتشخيص الأحوال.

نادى ليهمس في أذني لواعجــه لكن تفجر فيه الحزن بركانا

إن النداء في أصله طلب إقبال أو تفاعل من المنادى، فإن كان ذلك حاصلا فيه فإنه ليس واقعا في المنادي، إذ ليس باستطاعته النداء لتكوينه، وما الهمس بأقرب منه، إذ هما من خصائص الكائن الحي، وتلك خاصية المجاز في التشخيص والتجسيد.

وخصه بالهمس ليقصد المخاطب بشكواه دون غيره، لكن وقع الفاجعة كان أليما، فلم يحتمل ذلك فانفجر باكيا.

وفي تفجر الحزن بركانا؛ استعارة، حيث استعار البركان لشدة الحزن وحرقته بجامع الإحراق في كلٍّ حيث يصيب كل منهما ما يقع عليه بالإحراق، فذا للجسد وذا للأحشاء.

وقال الشاعر محمد عمر الفال:

كأنك ترجو الموت والموت مدبرٌ فلما دعاك الموت غادرت راضيا

إن مصاب الشعراء التشاديين بموت عباس كان شديدا، والدليل على ذلك بث شكاتهم بعبارات مختلفة، فتارة يندبون فيه صفاته وأخلاقه، وتارة يندبون فيه علمه، وكأن الموت لم يصد غيره من خيرة القوم.

فالشاعر يذكر الموت ثلاث مرات في بيت واحد في أوضاع مختلفة مفعولا وفاعلا ومبتدأ لبيان شدة وقعه عليه، فالتكرار يفيد التقرير والإيضاح. ثم قال:

وشعرك يا عباس يهدي إلى العلا فشادُ به تشدو وترضاه شاديا

قوله؛ يهدي مجاز مرسل، فالهداية ليست في الشعر ولا منه، وإنما هو سبب للهداية، بما فيه من مواعظ وحكم ومعالجة قضايا مجتمعه.

فشاد به تشدو؛ إن من يشدو بهذا الشعر ويتغنى به هم سكان تشاد لما فيه من معان جميلة، وبيان رائق ووزن كامل. فأطلق البلدة وأراد أهلها.

وقوله؛ ترضاه شاديا؛ مجاز عقلي حيث أطلق اسم الفاعل وأراد به اسم المفعول، فهي ترضى به مشدوّا، أي لحنا معزوفا، ونغما منشودا، فالقوم يرضون به مشدوا، حيث يقع عليه فعل الفاعل.

فأخلف جرحا واصلا كل بلدةٍ وأخلف أحزانا طوالا تواليا

ذكر الفعل أخلف مرتين للدلالة على ما حل بالناس من حزن عند وفاته، حيث ترك أثرا باقيا وهو البكاء عليه من قبل الأقربين، والحزن الدفين في الأباعد، فمن لم يبكه حضورا نعاه غيبا.

وذكره الفعل لتجدد حالة الحدث، حيث تكرر بتذكره، وقوله؛ واصلا كل بلدة دلالة على عموم الحزن.

وقال حامد هارون:

هو المعين فلا دلو يكدره بحر يؤم نداه الخلق ساقيها

شبهه بالمعين لما له من علوم ومعارف، فهو مصدر الشعر وضابط إيقاعه، ولا تكدره الدلاء، كناية عن الصفاء الناتج عن غزارة العلم في الفنون التي يجيدها.

كما شبهه بالبحر في العطاء، فهو معين في العلم، بحر في العطاء، وجاء تعريف المسند إليه بالضمير على عادة الشعراء في تعريف ممدوحيهم تعريفا به وإيضاحا لمكانته.

تلك المنايا فلا تبقي على أحدٍ ترمي الخلائق في أعلى نواصيها

بدأ الشاعر البيت باسم الإشارة للبعيد دلالة على عظم المنايا وفاجعتها، وفي تعريفها بالمسند إليه تقرير وزيادة إيضاح، كما شخّصها بأن رسم لها ملامح الكائن الحي، فهي ترمي الخلائق فتصيبهم بما يخيفهم ويؤلمهم، وفي ذلك استعارة.

وأطلق الناصية واراد بها الراس، من باب المجاز المرسل، فهو مجمع الإنسان وحاوي الحواس فيه، فإن أصيب فلا عزاء لبقية الأعضاء.

يقول الشاعر الحبو تجاني:

لقد خـر مــن بين الكواكب بدرنا ظننناه لم يأفل وها هو آفـل

شبه الشاعر ممدوحه بالبدر، ثم حذف المشبه وترك المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية، وعبر عن فقده بلفظ خرّ الدال على الذهاب المفاجئ، إذا أخذته المنية على حين غرة من بني وطنه، فأصبحوا فإذا هم من دونه، وكأن فقدانه كان فجأة.

وفي البيت طباق السلب بين الجملة المنفية لم يأفل، وبين المثبتة هو آفل. وفيه جرس يعطي السامع نغما يزيد في ترسيخ المعنى لديه وتوكيده.

وقال الشاعر حسب الله مهدي:

يا نـهر ها أنت بين الروض مرتحل والحِب منجدل قد شُدّ أكفانا

يخاطب النهر في هدوء منوعا له وسائل التذكير حيث كان يجري على مهل من أمره وحبيبه أخذته المنية، وكأنه لم يتأثر بذلك فخاطبه بهاء التنبيه للفت انتباهه.

قوله؛ مرتحل مجاز، فالنهر لا يجري لكونه ظرفا مكانيا، إنما الذي يجري هو الماء، لأن الارتحال من خصائصه لا من خصائص النهر، فالمجاز عقلي.

يقول في وصفه عبد الواحد السني:

ذاك السراج إذا أصبـت ضيـاءه بان الطريق وليس فيه منازع

بحر النـــدى في داره متـلاحـق صـف الضيـوف فعنـده لمنافع

يرى الشاعر أن ممدوحه سراج يضيء للناس الطريق ليبصرهم بأمور دينهم ودنياهم، وأشار إلى مكانته بين أقرانه باسم الإشارة الذي يدل على البعد، فهو قريب منهم من حيث العلم والمعاشرة، بعيد عنهم من حيث الحس والمكانة.

وليس فيه منازع؛ إشارة إلى علو كعبه في فنونه، ثم عرّج على وصف آخر هو بحر الندى في العطاء، فالتشبيه في البيتين واقع على أشياء محسوسة لتوضيح الفكرة.

وقوله؛ صف الضيوف؛ كناية عن التدافع الحاصل عند باب داره، حيث يصطفون حين يضيق بهم المكان، كل طالب نواله، فعنده لمنافع توكيد لما يحيوه من علم وكرم، وإدخال اللام هنا للتأكيد، ولكن لا مسوغ له قاعديا.

طباق السلب

يتعمد الشاعر أحيانا جلب الطباق لجر عواطف السامع ومشاعره، فيأتي بالكلمة وضدها من باب الطباق السلبي (طباق السلب) وإليه أشار الفال ببيته الآتي:

رحلت ولـم ترحل جهـودك يا فتى فعلمك بين الناس ما زال باقيا

حيث جاء طباق السلب بين فعل مثبت وآخر منفي في قوله رحلت ولم ترحل، ثم قال:

فأبكيت كل القوم شيبا وفتية وأبكيت أقصاهم أبكيت دانيا

إذ طابق بين الشيبة والفتية من حيث العمر، وبين الأقصى والأدنى من حيث الظرف.

وجعل جملة أبكيت في بداية الصدر والعجز للدلالة على عظم الفاجعة.

ولم يغب عنه التقسيم بعد الإجمال، فقوله؛ كل الناس إجمال يشمل جميع الأقسام المذكورة بعده، أعقبه تقسيم إلى شيبة وشبان، وإلى قريب وبعيد.

جرى على منواله الشاعر حامد هارون حين قال:

تلك النساء وذي الأطفال باكيـة كذا الأصاحب ترجو من يواسيها

فذكره النساء والأطفال دلالة على عظم الأمر، فهم غالبا لا يبالون بمن يموت ما لم تكن له مكانة في المجتمع تلفت انتباههم، فتأثرهم بفقده دلالة على عظم الأمر.

فالشاعر ذكر النساء والأطفال، والذكور الذين أشار إليهم بالأصاحب، فهو بهذا ذكر النوع والمرحلة العمرية، فالمصيبة عمت الجميع، وكان بيانها بكاء الأطفال والنساء.

وجاء **الجناس** في قول الشاعر عبد الواحد السني:

عباس عباسٌ إذا ظهرت له زلات أعداء لـــــه ومُدافع

يصف ممدوحه بأنه كريم الخصال متزنٌ في قوله وفعله، فإذا مسّت كرامته من قبل أحد فهو عبوس سريع التغير، وذلك في الأمور الذي تستدعي الانتصار لها.

فقوله؛ عباس عباسٌ من قبيل الجناس التام، فالأول اسمه، والثاني وصف له مشتق من العبوس، وقيده بالأمر المشين له، فهو عباسٌ يدافع عما يجب الدفاع عنه.

يأتي الخطاب على مــداخله لمن يأتيه يُفتي لا يكلف سامع

جاء بالفعل (يأتي) في موضعين، فالأول بمعنى يُصدر، من إصدار الفتوى للسائل، والثاني بمعنى يقبل، وفي معناهما ما يفيد التضاد، وقد أفاد الجناس من هذه الزاوية، فالأول يصدر والثاني يقبل، وهو فعل واحد أفاد الاثنين معا.

وقال الشاعر عيسى عبد الله:

العالم التقي في تفــانٍ والسمح إن قضى وإن تُقُوضي

في سرده لخصال الممدوح تعرض لخصلة من خصاله منها العلم والتقى وتقديم المعروف للآخرين، ثم خصه بصفة ينبغي ان يتحلى بها المسلم المعاصر وهي السماحة في التعامل وخاصة في البيع والشراء، في إشارة منه لحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم في هذا «رحم الله عبدا سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا اقتضى»22. وكفى به رجلا أن كانت هذه خصاله.
وفي ذلك طباق بين إن قضى بمعنى أعطى، وإن تقوضي بمعنى أخذ.
ونرى الجناس الناقص في قول الفال:

عروضك لم يعرض له بعد عارض فقـــد بقيت نهجا ورمزا مباريا

وتيــارك الموســـوم بالحفظ لــم يزل يسير أمام الشعر ما كان وانيا

22- سنن ابن ماجة، باب السماحة في البيع، رقم الحديث 2203.

تحدث عن قيمة شعره وعن مكانته بين أقرانه، فشعره تداولته الألسنة، وطالته الأيدي بالبحث والدراسة، وما ذاك إلا لاستقامة وزنه، ووضوح نهجه، وأشار إليها بأن بقيت نهجا يتبعه الشعراء من بعده، ورمزا للتطلع إلى مثله من حيث القاعدة والقالب.

فالجناس الناقص بين عروضك وعارض، وقوله؛ مباريا؛ إشارة إلى تباري القوم حولها، فكم كانت مبرزة في ميدان السباق؟ ثم عاد فوصف مذهبه بأنه مذهب محافظ، وهو أقوى المذاهب الشعرية عند أغلب الباحثين في هذا المجال لاستمداده من مذهب الأقدمين. بل هو أقوى المذاهب وجودا.

وقوله؛ يسير أمام الشعر كناية عن الأصالة والصمود لاستقامة وزنه، وشجي لحنه، وما ونِي، فأغلب تراثنا المحفوظ من الشعر العربي منه.

وفيه المجاز المرسل؛ حيث أطلق العروض وأراد به الشعر كله من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل. تعظيما لشعره، وامتنانا لقائله، وهو الذي أشار إليه الشاعر الحبّو تيجاني حين قال:

لشعرك أصـــداء سرت فـي نفوسنا فنظمك موزون ووزنك كامل

وقال عيسى عبد الله:

لله ـ وحده ـ البقاء إنّـا سود لنا الفناء مثل بيض

يتحدث الشاعر بلسان المؤمن الأواب في ختام مشهد الوصف حين سلم الأمور لخالقه، فما من كائن إلا تنله المنية، وعليه جاءت زفرات النفس المطمئنة قوية مؤثرة، حيث قدم المسند لله على المسند إليه الصفاء، ليفيد حصره على خالقه صاحب البقاء، ويرد النفس إلى دائرة الرضا بالأقدار والتسليم لها، وبيّن أن ذلك واقع على الجميع، فلا جزع ينجي، ولا أملٌ يبقي، وذكر السواد والبياض من باب التضاد

وجاء الاقتباس في قوله:

أمّا عن الأُلى سعوا فبِيني لا تقربُ النساء في المحيض

يتحدث عن خلال صاحبه وما تركه من خُلُق فيمن تعامل معهم، فهو كفّ للنفس عن حظوظ الدنيا، ورافع راية الاقتداء بالصالحين في هذا.

وقوله؛ الأُلى سعوا فبيني، أي من سعوا إلى الإفساد والوشاية بين الناس، فكان يعاملهم بترك الفحش ولوازمه، وكأنه يشير إليهم بتركه تعريضا بآية البقرة رقم (222)، فهو محرم، ومثله أعراض الناس.

ونجد الاستفهام في قول الشاعر حسب الله مهدي مكررا:

أراك تمرح في مجراك جزلانا ألـــــم تفـارق أحبـاءً وخـــلانا؟

ألست تذكر أحبابـا منحـتهمُ روح الحياة فهاموا فيك أزمانا؟

افتتح القصيدة بهذا الوصف حين مهّد للاستفهام بالإخبار، فذكر فعلين متواليين، حيث جاء الأول استصدارا والثاني وصفا وتأكيدا، مبينا أنه جلل، وهذا يتنافى مع موقف المحب تجاه محبوبه، فأردف على ذلك الاستفهام، فكان صدر البيت الثاني مؤكدا للذي في بداية عجز البيت الأول، وما تكراره له إلا لعظم الأمر، والتعامل معه يستدعي تدخل الاستفهام لرد الغافل إلى جادة الصواب، ثم عدد عليه صفات الأحباب، وبدا أن يؤنبه على غفلته تلك، وذِكر الأحباب بالجمع تعظيما للأمر، وتفخيما لشأن المرثي.

خـاتمـة الـدراســة

تناولت الدراسة رثاء الشعراء التشاديين للشاعر عباس محمد عبد الواحد بشعر ضافٍ بحرقة الرثاء تعبيرا عن فقدهم له، وتبيانا لمكانته بين قومه، وإظهارا للفراغ الذي خلفه بعد رحيله. وكانت القصائد

متحدة في بابها، صادرة من تيار واحدٍ هو التيار الإسلامي المحافظ في الشعر التشادي المعاصر، وقد تناول البحث في عرضه لها الوصف والتصوير اللذين اكتنفا هذه القصائد، وافقا على أهم الملامح التي اتصف بها الراحل، ولامس ما فيها من جوانب فنية بيّنَت اقتدار هؤلاء الشعراء على مجاراة الواقع، واستظهار المقدرة على التعبير عن الذات.
لم يغب عن بال الباحثين ما جنحت إليه مخيلة هؤلاء الشعراء في وصفهم لزميلهم حين عدوا فيه أوصافه وعددوا مناقبه، فجعل البحث على شكل موضوعات، خصص لكل جزء منها أبيات طرقت جوانب الموضوع، ولمّتْ شتيته.

النتائج

مما توصل إليه هذا البحث:
ـ تفاعل الشعراء التشاديون مع حدث وفاة عباس تفاعلا واضحا، حيث أبانت أشعارهم عما اختلج في ضمائرهم.

- مكانة عباس عبد الواحد في نفوس التشاديين عظيمة، لما لديه من معارف وعلوم ذات أثر على المجتمع، فرثاه الشعراء على فقدها، وفي قصائد الرثاء ما يبين ذلك.
- الشاعر التشادي قدير بمجاراة نظرائه في العالم العربي من خلال ما جادت به قريحته.
- تمتاز مرثيات الشعراء التشاديين في عباس بصدق العاطفة والوجدان، وفيها تعبير عن عمق الإخاء ولوعات الفراق.
- تقوم الصورة الفنية في المرثيات المدروسة على أساس الرسم بالكلمات أحيانا، والصور البيانية أحيانا أخرى، وأبرز صورة فيها هي صورة مجتمعٍ خيّم عليه الحزن، لفقده أحدَ علمائها الحذّاق، وشعرائها المجيدين، وهي صورة مستنبطة من اجتماع التشاديين، في مجالس المآتم، وخاصة في الساعات الأولى بعد الدفن.
- استخدم الشعراء عنصر التشخيص، فجعلوا من نهر شاري إنسانا حزينا، ومن وارا الأَثَريّة صديقا ناديا مرة، ورفيقا يواري رفيقه متألّما مرة، كما استنطقوا كتب الفرائض فَبَكَتْه لفقد جليسها وأنيسها الذي لا يمَلّها ولا تملّه.

التوصيات

يوصي البحث بما يأتي:

- إدراج قصائد عباس في المقررات الدراسية بوزارة التربية الوطنية.
- طباعة أعماله الأدبية لتعميم الفائدة، والمحافظة على تراثه من الضياع.
- إطلاق اسمه على المعالم الوطنية تخليدا لذكراه.
- دراسة أعماله الأدبية دراسة بلاغية أسلوبية، إذ إن هناك شح في هذا الاتجاه.

المصادر والمراجع

1 ـ البناء الفني في شعر عبد الواحد علي عبد الرحمن السني، هاشم محمد يوسف، رسالة تكميلية لنيل دبلوم الدراسات المعمقة- جامعة الملك فيصل بتشاد 2008م غير منشورة.
2 ـ الحيوان؛ عمرو بن بحر الجاحظ، الطبعة الثانية، 1424هـ، دار الكتب العلمية – بيروت.
3 ـ خصائص التراكيب البلاغية في شعر عباس محمد عبد الواحد (دراسة تطبيقية على مسائل علم المعاني) بشير أحمد سهل رسالة ماجستير، جامعة الملك فيصل بتشاد عام 2014م، غير منشورة.
4 ـ سنن ابن ماجة، باب السماحة في البيع.
5 ـ شرح ديوان الملامح الدكتور حسن محمود حسن محمد، دار طيبة للطباعة والنشر والتوزيع- أسيوط – مصر، 2006.
6 ـ فن الرثاء بين شعراء تشاد المحافظين والمجددين، صفية موسى عزو- دبلوم الدراسات المعمقة غير منشور – جامعة الملك فيصل بتشاد عام 2004.
7 ـ مختصر تاريخ سلطنة دار وداي الإسلامية العباسية من عام 1611- 2005م أ. عز الدين مكي إسحاق، الطبعة الأولى، دار الفضيلة؛ القاهرة، 2016م.

الدواوين والقصائد

1- ديوان الملامح، عباس محمد عبد الواحد ط مطبعة أسعد، بغداد – العراق، 1983.
2- ديوان صدى، الحبّو تيجاني مصطفى؛ الطبعة الأولى- دار الفضيلة للنشر، القاهرة، 2016.
3- ديوان نبضات أمتي، حسب الله مهدي فضلة، ط1، أنجمينا – تشاد، 2006.
4- ديوان أصداء النفس، محمد عمر الفال، ط1، بورصة الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014.
5- ديوان باقة من لباقة، عيسى عبد الله محمد، مطبوع على الآلة الكاتبة، سنة2001.
6- ديوان عواصف الصحراء على جحافل الأعداء، عبد الواحد علي السني، مخطوط، أنجمينا، سنة 2003.
7- في رثاء الشيخ الشاعر عباس محمد عبد الواحد، حامد هارون محمد، قصيدة مطبوعة على الحاسب الآلي، أنجمينا، سنة 2003.
8- في رثاء العلامة عباس محمد عبد الواحد، محمد آدم دغويني، قصيدة مطبوعة على الحاسب الآلي، أنجمينا، سنة 2003.